DOI: http://dx.doi.org/10.15575/jpi.v2i2.791

اللغة العربية في المد المعرفي الإسلامي والتربية الإسلامية

صالح بن عبد الله الشثري
أستاذ اللغة العربية بكلية الملك خالد بالرياض المملكة العربية السعودية
Email: shathris@yahoo.com

ملخص البحث

ينطلق هذا البحث من أن اللغة العربية هي مصدر الثقافة الإسلامية. والعلاقة بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية علاقة ذات رحم، فبينهما تلازم لا ينفك، فاللغة العربية وعاء الدين، بها جاء كلام الله، وبها نطق رسوله وأغراض هذا البحث هي لمعرفة العلاقة بين اللغة العربية والمد المعرفي الإسلامي والتربية الإسلامية. والطريقة المستخدمة هي الطريقة الوصفية التحليلية وأساليب جمع بياناتها الدراسات المكتبية. ونتيجة هذا البحث هي التربية الإسلامية تثري بوساطة اللغة العربية، لأن أكثر دعائمها وركائزها تستند إلى مصادرها الأساسية المكتوبة باللغة العربية، ومن أهمها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلا انفصال بينهما وبين اللغة العربية. يستوجب فهم ركائز التربية الإسلامية التي تستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الإلمام الواعي باللغة العربية. ومن المسلّم به أن التربية الإسلامية لا تتم إلا من خلال ترشيخ ركائزها الرصينة، وهي ترجع أساسيا إلى ما يهديه الله ورسوله في القرآن الكريم والسنة النبوية. ولا يتم تفهمها كاملا تاما إلا من خلال إتقان الإحاطة بلغتهما. ومغزى القول إن اللغة العربية تلعب دورها وأهميتها في ترشيخ الركائز للتربية الإسلامية بوصفها وسيلة جادة لاكتشاف ما يتعلق بها من مصادرها المكتوبة باللغة العربية نحو القرآن الكريم والسنة النبوية أو المصادر الأخرى.

ABSTRACT

This study stems from the assumption that Arabic is the source of Islamic culture. the Relationship between them is so close and indeed they are inseparable. Arabic serves as a vessel of Islam and it goes without saying that it is used to deliver Qur'an. In addition it is used by the prophet for communication. The purpose of this study is to determine the extent of the relationship between Arabic and Islamic thought particularly Islamic education. This study applied library research by examining the discourse and literature related to the research problem put forward. The results of this study reinforce the influence of Arabic on the development of Islamic education particularly its influence in studying and exploring the Islamic sciences. The establishment of various Islamic educational institutions as a place to

learn Arabic , Islamic thought and other Islamic sciences supports the result of this study.

Keywords: Arabic Language, Islamic Thought, Islamic Education

المقدمة

فإذا كانت الأمم والشعوب تفاخر بلغاتها، وتقدم لها كل الوسائل المادية والمعنوية لتنميتها والعناية بها؛ لأنها مصدر هويتها ، ومنبع عزها، فإن اللغة العربية هي اللغة العالمية التي اختصها الله تبارك وتعالى من بين اللغات لتكون لغة لكتابه العزيز، المصدر الأول للتشريع، وهي لغة العبادة للمسلمين، الذين تجاوزوا المليار وثلاث مئة مليون، فحفظها الله من التغيير والتبديل، في حين اندثرت مئات اللغات، وما ذاك إلا لحفظ الله تعالى لكتابه العزيز: إنا نحن نزلنا القرآن وإنا له لحافظون (يوسف [١٢]: ٢)

ومن قديم الزمان وعلى مر العصور اجتهد العلماء والمربون والمخلصون في العناية بلغة القرآن الكريم، تعليماً وتطويراً وتأليفاً. والعلاقة بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية علاقة ذات رحم، فبينهما تلازم لا ينفك، فاللغة العربية وعاء الدين، بها جاء كلام الله، وبها نطق رسوله.

ومن منطلق هذا التلازم جاءت فكرة البحث عن أثر اللغة العربية في المد المعرفي الإسلامي والتربية الإسلامية، لنقف وقفات وتأملات حول هذه اللغة العالمية التي هي مصدر الثقافة الإسلامية، والتي انطلق عبر أثيرها الوحي الرباني ليملأ هذا الكون جمالاً وبهاء، وليعلو هذا الدين الإلهي العظيم، وصدق الله القائل: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِين (الشعراء [٢٦]: ١٩٢-١٩٥) وسيتناول الحديث المباحث التالية : ١) القرآن الكريم وأثره في اللغة العربية؛ ٢) اللغة والدين والثقافة؛ ٣) المحافظة على اللغة العربية من الضياع، والبعد عن اللهجات العامية وتخليص اللغة العربية منها؛ ٤) التحديات المعاصرة التي تواجه اللغة العربية؛ و٥) دور اللغة العربية في ترشيخ ركائز التربية الإسلامية.

البحث

القرآن الكريم وأثره في اللغة العربية

إن حديثنا عن القرآن الكريم وأثره في اللغة العربية، حديث ذو شجون، فالقرآن الكريم عربي المبنى فصيح المعنى، اختار الله تعالى لكتابه أفصح اللغات فقال تعالى: إنا جعلناه قرآناً عربياً (الزخرف

[٤٣]: ٣)، وقال تعالى: نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين (الشعراء [٢٦]: ١٩٢-١٩٥)، وقال تعالى: قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون (الزمر [٣٩]: ٢٨).

ومن الراجح أن اللغة العربية هي أقدم اللغات على الإطلاق، كما بينت الدراسات الحديثة وأنها اللغة التي علّم الله بها آدم الأسماء كلها، وهي لغة أهل الجنة، كما ورد في الحديث: "أَحِبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي (رواه الحاكم في المستدرك، ٤ /٨٧).

ومن هذا المنطلق نجد الثعالبي يعبر عن هذه اللغة أبلغ تعبير فيقول في مقدمة كتابه الشهير فقه اللغة وسرّ العربية: "من أحب الله تعالى، أحب رسوله محمداً"، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، واعتقد أن محمداً خير الرسل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتبحر في جلائلها ودقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان، لكفى بها فضلاً يحسن أثره، ويطيب في الدارين ثمره" (الثعالبي، ١٩٣٨، ص. ١٠).

ومن هنا اكتسبت اللغة العربية المكانة العظيمة والخلود السرمدي، قال الله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (الحجر [١٥]: ٩). فبحفظ الله تعالى كتابه يحفظ اللغة العربية، فهي باقية ببقائه إلى يوم الدين، ولا أدل على ما أحدثه كتاب الله تعالى في هذه اللغة من الحفظ، والثبات، والدوام، وقوة اللغة والرقي بها نحو الكمال، وما اكتسبته من اليسر والسهولة، وجمال اللفظ والعبارة، وما تميزت به في الدلالات والتراكيب، وحسن الأساليب.

فاللغة العربية تمتاز بخصائص تجعلها تنفرد بها عن غيرها بصفات ومزايا تخصها من حيث هي لغة. سواء أكانت في مفرداتها من حيث الغزارة وحسن التأليف مثلاً، أم في معانيها من حيث دقة التعبير أو علاقات التناسب بين الألفاظ والمعاني، أم في الأساليب من حيث إحكام التركيب، ومن

حيث سعة التصرف، والقدرة على ملاحقة وجوه المعاني، ودرجاتها، ولأجل ذلك تحدث كثير من العلماء السابقين عن هذا الأمر، فوصفوا اللغة العربية بأنها أوسع اللغات، وأنها من أحسنها تأليفاً، وأنها اختصت بالإعراب، وهكذا، وهذه أحكام مجملة تحتاج إلى بيان وتوضيح دقيق، وقد أحصى ذلك الدكتور محمد حبل في كتابه خصائص اللغة العربية تفصيل وتحقيق.

يقول الجاحظ (ت. ٢٥٥): "ولا بد أن نذكر الدليل على أن العرب أنطق، وأن لغتها أدل، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي ضربت فيها أجود وأيسر. وأن نذكر الدليل على أن البديهة مقصورة عليها، وأن الارتجال والاقتضاب خاص فيها، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعراً.."، وفي موضع آخر يقول: "البديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان"، وهو يقصد بالبديع علم البيان (١٩٧٥، ص. ٤/٥٥).

ويقول ابن قتيبة (ت. ٢٧٦): "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات. فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب إقامة الدليل على نبوته بالكتاب" وبيّن أن من خصائص العربية البيان، وزيادة حروف المباني في العربية عنها في غيرها، والإعراب، والشعر، والعروض، وتغير بعض حروف الكلمة بقدر ما تغير من مدلولها نحو: النضح، والنضخ، وهو ما سماه ابن جني التصاقب، وارتباط الدلالة بالصيغة في نحو (ضُحْكة) بالضم، و(ضُحَكة) بضم ففتح، وذكر ذلك ابن فارس وأضاف أيضاً الترادف، وكذلك الإمام الشافعي، والزجاجي والفارابي وغيرهم (حسن حبل، ١٩٧٨، ص. ١٩-٢٠، ٢٥-٣٦).

وبعد هذا يمكن أن نخرج بعدد من الخصائص التي امتازت بها اللغة العربية، من أبرزها ما يلي:

١- البيان: فقد وصف المولى سبحانه القرآن بأنه نزل بلسان عربي مبين (الشعراء [٢٦]: ١٩٥)، وهذا كما قال ابن فارس أبلغ ما توصف به اللغة، وهو البيان، فهو رأس وظائفها وأخص ما تراد له، وهو دليل على تحقق هذه الصفة فيها على أكمل الوجوه، ومن ثم كانت أكمل اللغات.

والبيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع، والمراد بذلك الكشف بالعبارة اللغوية عما يقع في النفس من مشاعر وخواطر وفكر تتعلق بالأشياء المحيطة، أو التي تتولد في الحس الباطن بوجه عام، يقول الجاحظ: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل (حسن حبل، ١٩٧٨، ص. ٣٧-٣٨).

٢- البناء الداخلي للغة: حيث قامت اللغة العربية على قواعد وأصول ثابتة، سواء من الناحية النحوية أو الصرفية، أو الصوتية، أو البلاغية، أو في المعجم، أو في فقه اللغة وعلومها، وهذا يدل على اتساع اللغة وكثرة مفرداتها وتنوع الحقول الدلالية وكثرة المعاني المتصلة بها، ولأجل ذلك بنيت أكثر كلماتها على ثلاثة أحرف، وقليل منها على أربعة أو خمسة حتى لا يطول النطق ويعسر، كما لم يكثر من الألفاظ الثنائية خشية تتابع عدة كلمات في العبارة الواحدة، فيضعف متن الكلام، ويحدث فيه ما يشبه التقطع لتوالي الألفاظ المكون من حرفين فقط (محمد الشنطي، ١٤٢٤هـ، ص. ٥٢)

٣- زيادة حروف المباني: مما تمتاز به اللغة العربية وتختص به دون اللغات الأخرى عدد أحرفها التي بلغت ثمانية وعشرين حرفاً، وهذا لا يوجد في لغة أخرى، وكذلك حرف الضاد التي لقبت به اللغة العربية (لغة الضاد)، وأصبح علماً عليها نظراً لأنه لا يوجد في لغة أخرى، والمراد بحرف المباني الحروف التي يتركب منها الكلام أي الحروف الأبجدية مجردة. يقول ابن قتيبة: "وألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين حرفاً، وهي أقصى طوق اللسان، وألفاظ جميع الأمم قاصرة ثمانية وعشرين. ولستُ واجداً في شيء من كلامهم حرفاً ليس في حروفنا إلا معدولاً عن مخرجه شيئاً، مثل الحرف المتوسط مخرجي القاف والكاف، والحرف المتوسط مخرجي الفاء والباء."

ومن الأمور الملاحظة أن ما ينطق من الحروف يكتب، وما لا ينطق لا يكتب إلا في بعض الكلمات القليلة، كذلك أن هذه الحروف استوفت جميع أجهزة النطق عند الإنسان، وقد أكد على ذلك كثير من علماء فقه اللغة والصوتيات (أحمد عليان، ١٤٢١هـ، ص. ٣٠).

٤- الشمولية لحقول المعرفة الإنسانية: فاللغة العربية استوعبت ثمرات العقول، وجهود العلماء في مختلف حقول المعرفة الإنسانية والعلوم الطبيعية، ومن يتأمل التاريخ الإسلامي في العصر العباسي فقط يلحظ كيف استوعبت اللغة العربية الكثير من الكتب اليونانية والفارسية والهندية، كما أن المكتبات في مختلف أنحاء العالم تزخر بالمخطوطات العربية التي لم تحقق ولم تطبع حتى الآن، والتاريخ مليء بالأخبار عن اهتمام المستشرقين وغيرهم من علماء الشرق والغرب باللغة العربية ودراستها، واستقراء ملامح تاريخها وثرائها، مما يدل على ثرائها، وقدرتها على هضم تراث الأمم الأخرى، فكان لها تاريخ عظيم إذ حافظت على ما دونه العقل البشري من علوم ومعارف عند الأمم ونقلها عبر العصور (الشنطي، ١٤٢٤هـ، ص. ٥٦).

٥- ظاهرة الترادف: مما تميزت به اللغة العربية الظواهر اللغوية التي تكشف مدى ثراء اللغة وسعتها الدلالية، ومنها ظاهرة الترادف، والأصل في كل لغة أن يوضع اللفظ الواحد لمعنى واحد، ولكن لظروف تنشأ في اللغة تتعدد الألفاظ لمعنى واحد ، أو تتعدد المعاني للفظ واحد، فالأول هو الترادف، والثاني هو المشترك اللفظي.

فالترادف يعني ما اختلف لفظه واتفق معناه، حيث تطلق عدة كلمات على المدلول الواحد، فللسيف في اللغة العربية أكثر من ألف اسم، وللأسد خمسمائة، وكذلك الداهية والثعبان والعسل لها أسماء كثيرة معلومة في كتب اللغة (رمضان عبد التواب، ١٩٦٣، ص. ١٧٢/٢).

٦- ظاهرة الاشتقاق: والاشتقاق في اللغة العربية يعني توليد بعض الألفاظ من بعض، والرجوع بها إلى أصل واحد، يحدد مادتها، فأحد العوامل المؤثرة في ثراء اللغة كونها لغة اشتقاقية، واللغة العربية تحوي على عدد كبير من الأصول الثلاثية أو الرباعية والخماسية عن طريقها نستطيع أن نصوغ عدداً كبيراً من المشتقات التي تعبر عن المطلوب بيانه، كصيغ الماضي والمضارع والمستقبل والأمر وأسماء المصدر، والفاعل والمفعول والهيئة والآلة والتفضيل، وهذه الأمور

قواعد مفصلة في طريقة صياغتها، لكنها تعد في الأساس على التغيير في بنية اللفظة، وليس على الزوائد في أول الكلمة أو آخرها كما هو ملاحظ في اللغات الهندية والأوربية (عثمان الفريح وأحمد رضوان، ١٤١٥هـ، ص. ٥٠).

٧- لغة الإعراب: يعد الإعراب من خصائص اللغة العربية، ومراعاته تعد الفارق الوحيد بين المعاني المتكافئة في اللفظ، فعن طريق الإعراب يمكن تمييز الكلام، يقول ابن فارس: "من العلوم الجليلة التي خصت به العربية الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز بين فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا نعت من توكيد (بن فارس، د.س. ص، ٤٢).

اللغة والدين والثقافة

اللغة والدين والثقافة: هذه الكلمات الثلاث كل لا يتجزأ ، والروابط بينهما عميقة متداخلة ، يؤثر كل منهما في الآخر ، وعندما يطلب من أحدنا تفسير هذه العلاقة قد يجد عجزا وحرجا في ذلك ولعلي أختصر ذلك في ثمان نقاط:

١- تعد اللغة مدخل إلى الثقافة: . فكيف يمكنك معرفة ثقافة قوم دون معرفة لغتهم، وبالتالي ينبغي لطالب الثقافة أن يعرف اللغة بشكل جيد فالمعرفة السطحية لن تسعفه في معرفة التراكيب والمصطلحات وبالتالي سيظل بعيدا عن إدراكها فضلا عن توظيفها فيما بعد فيما يريده من خير أو شر.

٢- إتقان اللغة له دور كبير في تصحيح الفهم وتناقل التجارب على الوجه الصحيح ، فالذي لا يدرك أبعاد الكلمة ومرادفاتها ومواضعها التي يختلف فيها معناها بحسب سياقها لا شك أنه سيدرك صورة غير الصورة المكتوبة أو أنه في أحسن الأحوال لن يدرك الصورة المكتوبة .. فالجهل البسيط خير من الجهل المركب.

٣- إن النص الذي لن تتمكن من معرفة معناه سيظل سدا حائلا دون الوصول للمراد الحقيقي وبالتالي دون معرفة المنهج الحركي للكلمات.

٤- إن الإهمال في تعليم النشء لغته الأصيلة والتقصير في غرسها فيه وتحبيبها إليه يعنى خيانة كبيرة في حق جيل بأكمله وأمة بكاملها ولا ينبغي السكوت على هذه الخيانة أو التوقف عن إنكارها ، إن مثل هذه الخيانة مدخل لتغريب الجيل وحجبه عن الأداة التي سيتعرف بها على تراث أمته و كتاب الله تعالى وبالتالي الفقه في الدين ، إنه بلا شك أن إهمال اللغة وتعطيلها أو إدخال لغة أخرى تؤثر على تعلم الجيل للغته العربية يعد غشا للرعية ومن مات غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة.

٥- من الملاحظ أنه عندما يعتز المرء بدينه يعتز بلغته، وحين يعتز المرء بلغته يعتز بدينه غالبا، ولا يهم ما المؤثر الحقيقي على الآخر بقدر أنه من المهم أن نفهم هذه العلاقة التي تربط بينهما، وأن كل واحد منهما مدخل إلى الآخر.

٦- الأمم المتقدمة تدرس أبناءها بلغتها هي رغم قلة من يتكلمون بها إلا نحن العرب والمسلمين لا نزال في ذيل قائمة الدول المتقدمة – إن كنا بها أساسا – مستكبرين على لغتنا أن تحيط بالمد الهائل من الكتب و المراجع العلمية التي تقذف بها المكتبات ومعاهد البحوث في كل يوم وليلة ، رغم أن العبرية مثلا تجاوزت هذا الأمر والفرنسية والفيتنامية ولغات أخرى لا تعد لغاتها من اللغات الحية، ولكن الذي ينقصنا فعلا الرجال

٧- إن لم نستطع أن نهتدي إلى أهمية اللغة بعقولنا هلّا سألنا أنفسنا : لماذا تلك الهجمة الشرسة من الغرب على لغتنا ؟ لا شك أنهم أدركوا دورها في ربطنا بأمتنا وحضارتنا وديننا.

٨- في أيام عز المسلمين كان اللسان العربي هو لسان العلم والثقافة حتى للأوربيين فهل اكتفوا بتعلم اللسان العربي لينهلوا من علومنا ؟

كلا، لقد سرقوا كتبنا وذهبوا يترجمونها بلغتهم كي يفهموها، ويتعلمها أكبر قدر من بني جلدتهم، أما نحن فخالفنا القضية فذهبنا نغمس أكبر قدر من بني جلدتنا في ثقافتهم دون أن يكون لهم ما يحميهم من الصدمة الحضارية.

المحافظة على اللغة العربية من الضياع والبعد عن اللهجات العامية وتخليص اللغة العربية منها

سبق أن ذكرنا أن السر الكامن وراء خلود اللغة، والحفاظ عليها من الاندثار هو القرآن الكريم بما كان له من أثر بالغ في حياة الأمة العربية، وتحويلها من أمة تائهة إلى أمة عزيزة قوية بتمسكها بهذا الكتاب الذي صقل نفوسهم، وهذب طباعهم، وطهر عقولهم من رجس الوثنية وعطن الجاهلية، وألف بين قلوبهم وجمعهم على كلمة واحدة توحدت فيها غاياتهم، وبذلوا من أجلها مهجهم وأرواحهم، ورفع من بينهم الظلم والاستعباد، ونزع من صدورهم الإحن والضغائن والأحقاد، فقد كان القرآن الكريم ولا يزال كالطود الشامخ يتحدى كل المؤثرات والمؤامرات التي حيكت وتحاك ضد لغة القرآن، يدافع عنها، ويذود عن حياضها، يقرع أسماعهم صباح مساء، وليل نهار بقوله تعالى: وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (البقرة، [٢]: ٢٣-٢٤)، وقوله تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (الإسراء [١٧]: ٨٨)، فلما كان القرآن الكريم بهذه المنزلة لا جرم أن المسلمين أقبلوا عليه ودافعوا عنه، واعتبروا أن كل عدوان على القرآن هو عدوان على اللغة العربية، وأن النيل من اللغة العربية هو نيل من القرآن، ولذلك فإن بقاء اللغة العربية إلى اليوم وإلى ما شاء الله راجع إلى الدفاع عن القرآن، لأن الدفاع عنه –لكونه أصل الدين ومستقى العقيدة– يستتبع الدفاع عنها لأنها السبيل إلى فهمه، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن الإسلام دين الله، وأن القرآن من عند الله لا من وضع أحد.

يقول الباقوري: "ولو فرضت أنه نزل كما نزل غيره من الكتب المقدسة، حكماً وأحكاماً، وأمراً ونهياً، ووعداً ووعيداً، ولم يتحر هذا الأسلوب الذي جاء به، فلم يعن الناس بلفظه ولم ينظروا إليه قولاً فصلاً، وبياناً شافياً، وبلاغة معجزة، لكان من الممكن أن تزول هذه اللغة بعد أن يضعف العنصر الذي يتعصب لها على أنها لغة قومية، ومن ذلك تضعف هي وتتراجع حتى تعود لغة أثرية.

وفي اللغة العبرية ما يؤكد هذا، فإنها –وهي لغة كتاب مقدس –صارت إلى ذمة التاريخ، ولو أن التوراة جاءت كما جاء القرآن فتحدت اليهود على النحو القرآني لاحتفظوا بلغتهم لأن في ذلك احتفاظاً بمعجزة نبيهم، فكان ممكناً أن نرى لغة موسى عليه السلام" (الباقوري، ١٩٦٩، ص. ٣٣).

ويبدو هذا الأمر واضحاً لمن تتبع اللغات وما تعرضت له من انقسام وانشطار واندثار بعد أن كانت لغة عالمية محكية وصناعية، وليست اللغة اللاتينية عنا ببعيدة فقد كانت لغة وحضارة وسطوة وقوة فبقيت أثراً بعد عين.

وعلى العكس من ذلك فإن اللغة العربية لم تكن لها هذه القوة وهذه المنعة، وليست لغة حضارة وصناعة، إنما كانت لغة صحراء وأمية، بكل ما تفرضه بيئة الصحراء من بساطة وضيق عيش، وبعد عن العلوم والمعارف، ثم إن العرب قد تعرضوا للحروب والدمار كغيرهم، ولكن ما زالت لغتهم قوية ساطعة تنبض بالحيوية والنشاط، وما ذلك إلا بفضل القرآن الكريم، الذي تكفل الله بحفظه، فحفظ به اللغة التي نزلت به، ولم يتكفل بحفظ غيره من الكتب المقدسة فبادت اللغة التي نزلت فيها، واندثرت.

لقد منح القرآن الكريم اللغة العربية قوة ورقياً ما كانت لتصل إليه لولا القرآن الكريم، بما وهبها الله من المعاني الفياضة، والألفاظ المتطورة والتراكيب الجديدة، والأساليب العالية الرفيعة، فأصبحت بذلك محط جميع الأنظار، والاقتباس منها مناط العز والفخار، وغدت اللغة العربية تتألق وتتباهى على غيرها من اللغات بما حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال، وفي هذا يقول العلاّمة الرافعي رحمه الله: "نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك، لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التركيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود لأنها هي لغتهم التي يعرفونها ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم" (الرافعي، ١٩٧٤، ص. ٢ /٧٤).

هذا ما عبر به إمام العربية الرافعي ، وليس هو فحسب، بل اعترف أعداء العربية من المستشرقين وغيرهم بقوة اللغة العربية وحيويتها وسرعة انتشارها، فيقول "أرنست رينان": "من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء، فبدأت فجأة في غاية الكمال، سلسة أي سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة، من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمّة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغيير يذكر، حتى إنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى..." (الجندي، د.س. ص، ٢٥).

ويقول جورج سارنوت: "ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة، وقد وهبها الرسول صلى الله عليه وسلم مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد (عبد الجليل عبد الرحيم، ١٩٨١، ص. ٥٨٥).

ويقول بروكلمان: "بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت اللغة العربية منذ زمان طويل رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطلق بها شعوب إسلامية (كارل بروكلمان، د.س.، ص. ١/ ٢٣).

ومما لا شك فيه أن اعتراف أمثال هؤلاء، لا يقوي من وضع اللغة العربية أو يأخذ بيدها إلى الرفعة، وإنما ذكرنا أقوالهم لنبين أن الفضل ما شهدت به الأعداء. ويأتي العلاّمة الفراهي الهندي (١٩٩١، ص. ٧٧) –إمام العربية في عصره –ليقول عن اللغة العربية: "أعلم أن كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم الذي تعودت به، لأنهم مولعون برزانة القول وتهذيبه من أمور سخيفة، فهم

يجردون كلامهم من كل رابطة، ولو فعلوا ذلك كان عاراً على السامع، فإنه يفهم الروابط بذكائه، فلذلك كثر فيهم الحذف..."

لقد اتسع انتشار اللغة العربية حتى تغلغلت في الهند والصين وأفغانستان، وحسبنا شاهداً على ذلك ما نعلمه من مشاهير العلماء من تلك البلاد مثل البخاري ومسلم، والنسائي، وابن ماجه القزويني، وغيرهم وغيره (نور الدين عتر، ١٤١٨هـ، ص. ٥٩).

إن اللغة العربية ما كانت تطمع في أن يتعدى سلطانها جزيرتها، فتضرب الذلة على لغات نمت في أحضان الحضارة وترعرعت بين سمع المدينة وبصرها، وتستأثر دونها بالمكان الأسمى في ممالك ما كان العربي يحلم بها، فضلاً عن أن يكون السيد المتصرف فيها، ولكن القرآن الكريم انتزعها من أحضان الصحراء، وأتاح لها ملكاً فسيح الأرجاء، تأخذ منه لألفاظها ومعانيها، وأغراضها وأسلوبها، ما لم تمكنها منه حياته البدوية، فبعد أن كانت ثروتها في حدود بيئتها، أصبحت غنية في كل فنون الحياة فأقبل الناس عليها مدفوعين إلى معرفة أحكام الدين، وأداء واجبات الإسلام (يوسف الشربجي، ١٤٢٢هـ، ص. ٤٩).

هل قواعد اللغة سبب في صعوبتها؟

من الثابت المعروف أن العرب قبل نزول القرآن كانوا يجرون في كلامهم، وأشعارهم، وخطبهم على السليقة، فليس للغتهم تلك القواعد المعروفة الآن، وذلك لعدم الحاجة إليها، ولا أدل على ذلك من أن التاريخ يحدثنا عن كثير من العلماء الذين صرحوا بأن لغتهم استقامت لما ذُهب بهم إلى الصحراء لتعلم اللغة العربية النقية التي لم تشبها شائبة، ومن هؤلاء الإمام الشافعي، وقد كان الوليد بن عبد الملك كثير اللحن؛ لأنه لم يغترف لغته من الينبوع العربي الصحراوي الصافي.

ولما اتسعت الفتوح، وانتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، احتك العجم بالعرب، فأفسدوا عليهم لغتهم، مما اضطر حذيفة بن اليمان الذي كان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، أن يرجع إلى المدينة المنورة، ويقول لعثمان رضي الله عنه: "يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها اختلاف اليهود والنصارى...." (البخاري، ١٤٢٦هـ، ص. ٦/ ١٨٣- ١٨٤)، فأمر عثمان بجمع القرآن، وكان قصده أن يجمعهم على القراءات الثابتة

المعروفة عن النبي (الزركشي، ١٩٦٠، ص. ٢٦٣)، وهذا ما حصل، فقد ضعفت اللغة مع مرور الأيام، وفشا اللحن في قراءة القرآن، الأمر الذي أفزع أبا الأسود الدؤلي وجعله يستجيب لوضع قواعد النحو، التي هي أساس ضبط حركات الحروف والكلمات، ومن ثم العمل على ضبط المصاحف بالشكل حفاظاً على قراءة القرآن من اللحن والخطأ.

وليس هذا فحسب، بل يرجع الفضل للقرآن الكريم في أنه حفظ للعرب رسم كلماتهم، وكيفية إملائهم، على حين أن اللغات الأخرى قد اختلف إملاء كلامها، وعدد حروفها. يقول عز الدين عتر: "والسر في ذلك أن رسم القرآن جعل أصلاً للكتابة العربية، ثم تطورت قواعد إملاء العربية بما يتناسب مع مزيد الضبط وتقريب رسم الكلمة من نطقها، فكان للقرآن الكريم الفضل في حفظ رسم الكلمة عن الانفصام عن رسم القدماء" (دون السنة، ص. ٦١).

مفردات وتراكيب اللغة وأثر ذلك في جمالها وانتشارها

لا ريب في أن اللغة تتأثر حسب الناطقين بها، والعرب أمّة أكثرها ضارب في الصحراء، لم يتحضر منها إلا القليل، فلا جرم كان في لغتهم الخشن الجاف، والحوشي الغريب، وقد أسلفنا عن الواسطي أن لغة قريش كانت سهلة لمكان حياة التحضر التي كانت تحياها في ذلك الوقت.

ولعل من يقرأ الأدب الجاهلي ويتدبره، يزداد إيماناً بما للحضارة من أثر في ألفاظ اللغة، فإنه سيرى في أدب أهل الوبر كثيراً من مثل "جحيش"، و"مستشزرات"، وما إلى ذلك مما ينفر منه الطبع، وينبو عنه السمع، على حين أنه يكاد لا يصادفه من ذلك شيء في أدب القرشيين.

والقرآن الكريم —فضلاً عن أنه نقل العرب من جفاء البداوة وخشونتها، إلى لين الحضارة ونعومتها، فنزلوا عن حوشيهم، وتوخوا العذوبة في ألفاظهم، –قد تخير لألفاظه أجمل ما تخف به نطقاً في الألسن، وقرعاً للأسماع، حتى كأنها الماء سلاسة، والنسيم رقة، والعسل حلاوة، وهو بعد بالمكان الأسمى الذي أدهشهم، وحير ألبابهم، وأفهمهم أن البلاغة شيء وراء التنقيب والتقعير، وتخير ما يكد الألسن ويرهقها من الألفاظ، فعكفوا عليه يتدبرونه، وجروا إليه يستمعونه؛ ذلك أن القرآن الكريم قد انتهج في تعابيره أسلوباً له حلاوة، وعليه طلاوة، تنتفي فيه الكلمة انتقاء، حتى كانت مفردات القرآن الكريم من اللغة العربية بمثابة اللباب وغيرها كالقشور، مما جعل ابن خالويه يقول: "أجمع الناس أن اللغة إذا وردت

في القرآن فهي أصح مما في غيره"(السيوطي، د.س.، ص. ١٢٩/١١) ، ولا أدل على ذلك حين المقارنة بين الشعر الجاهلي، والإسلامي، أو الأدب الجاهلي والإسلامي، لتجد البون شاسعاً، والفارق كبيراً، ذلك أن القرآن الكريم بفصاحته وروعة ألفاظه قد أغرى العرب على محاكاته، فأقبلوا إليه يزفون، ومن بحره ورياضه يستقون وينهلون، ومن ألفاظ ومعانيه يقتبسون ويتكلمون، فوضعوا بذلك قواعد علوم البلاغة، بغاية الروعة وقمة البراعة، متكئين فيها على ما في القرآن الكريم من أوجه الإعجاز، ناسجين منه أجمل حلة وأحلى طراز، ولهذا نجد أبا الهلال العسكري يقول: "وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما اختصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز عنها، وتحيرت عقولهم فيها"(العسكري، دون السنة، ص. ٢).

وهناك آثار غير ذلك للقرآن الكريم أحدثها في اللغة العربية والأدب العربي، كتنمية ملكة النقد الأدبي، وذلك أن العرب كانت لهم أسواقهم المشهورة، ومعلقاتهم المنظومة، ومبارياتهم المعروفة، فلما نزل القرآن الكريم، ولامس شغاف قلوبهم، ورقت له أحاسيسهم ومشاعرهم، فتغيرت أحكامهم وقوانينهم، فنقلهم من الفصيح إلى الأفصح، ومن الجيد إلى الأجود، ذلك هو القرآن بإعجازه، فإذا كان القرآن الكريم بهذه المنزلة وبهذه المكانة، وبهذا التأثير على العرب ولغتهم فنقلهم من البداوة إلى الحضارة، ومن الذل والهوان إلى الرفعة والسؤدد، ومن التقوقع والتشرذم إلى العالمية والانتشار، ومن الحوشي والغريب إلى السهولة واليسر، ومن العامية إلى الفصحى.

القرآن الكريم، كلام الله، المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم حافظ على أصل اللغة من الضياع والاندثار، وهو الذي قوى اللغة بين الأمم، وجعلها عالمية، وهو الذي هذب لهجاتهم من الحوشي والغريب وجعلها هينة لينة، وهو الذي جعل من بعض العجم أئمة يقتدى بهم، ويستصغر الواحد نفسه أمام علومهم، أمثال: البخاري، والترمذي، وأبي داود السجستاني، والنَّسائي، وابن ماجة القزويني، ومن المفسرين الإمام الطبري، والزمخشري والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وغيرهم كثير، ومن

أهل اللغة، الخليل ابن أحمد ،وسيبويه، وأمثالهم، عنايتهم باللغة جعلهتم سادة الدنيا، يُترحم عليهم إلى قيام الساعة كلما ذكروا!

ولا يخفى أن لهجات اللغة العربية كانت مختلفة، تحتوي على الفصيح والأفصح، والرديء والمستكره، وكانت القبائل العربية معتدة بلهجتها حتى إن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف من أجل التخفيف على العرب في قراءته وتلاوته، ولا شكّ أن لغات العرب متفاوتة في الفصاحة والبلاغة، ولذلك نجد عثمان رضي الله عنه قد راعى هذا الجانب في جمعه للقرآن، وقال للجنة الرباعية: "إذا اختلفتم أنتم فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلغتهم" وما ذلك إلا لأن لغة قريش أسهل اللغات وأعذبها وأوضحها وأبينها، وكانت تحتوي على أكثر لغات العرب، ونظراً لكونهم مركز البلاد وإليهم يأوي العباد من أجل الحج أو التجارة، فقد كانوا على علم بمعظم لغات العرب بسبب الاحتكاك والتعامل مع الآخرين، ولكن لغتهم أسهل اللغات كما ذكرت، ينقل السيوطي عن الواسطي قوله: "....لأن كلام قريش سهل واضح، وكلام العرب وحشي غريب" ولذلك حاول العرب الاقتراب منها، وودوا لو أن ألسنتهم انطبعت عليها حين رأوا هذا القرآن يزيدها حسناً، ويفيض عليها عذوبة، فأقبلوا على القرآن الكريم يستمعون إليه، فقالوا على الرغم من أنفهم: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه" ، ولم يزل المسلمون يقبلون عليه ويتلونه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، حتى صاروا بفضل القرآن خير أمة أخرجت للناس، ينطقون لغة واحدة عربهم وعجمهم، وكان بذلك جامعاً للعرب والمسلمين على لغة قريش وما يقاربها، وليس بينهم هذا التفاوت والاختلاف في اللهجات كما كان قبل نزول القرآن، وبذلك دخلوا في مرحلة تاريخية فريدة هي توحد لغتهم وألسنتهم فيما بين بعضهم البعض بل وعلى مر العصور وكر الدهور.

عالمية اللغة العربية

اللغة هي صورة صادقة لحياة الناطقين بها، والعرب قبل نزول القرآن الكريم، لم يكن لهم شأن ويذكر أو موقع بين الأمم آنذاك حتى تقبل الأمم على تعلم لغتهم، والتعاون معهم فليست لغتهم لغة علم ومعرفة، وكذلك ليس لديهم حضارة أو صناعة، كل ذلك جعل اللغة تقبع في جزيرتها فلا تبرح إلا لتعود إليها

وقد ظلوا كذلك، حتى جاء القرآن الكريم، يحمل أسمى ما تعرف البشرية من مبادئ وتعاليم، فدعا العرب إلى دعوة الآخرين إلى دينهم، ومما لا شك فيه أن أول ما يجب على من يدخل في الإسلام هو تعلم اللغة العربية لإقامة دينه، وصحة عبادته، فأقبل الناس أفواجاً على تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولولا القرآن الكريم لم يكن للغة العربية هذا الانتشار وهذه الشهرة، وهذه المكانة.

التحديات المعاصرة التي تواجه اللغة العربية

واجهت اللغة العربية منذ القديم وما زالت تحديات كثيرة، وما ذلك إلا لأنها لغة القرآن الكريم، ومن المعلوم أن اللغة والدين هما العنصران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة (أحمد الضبيب،٢٠٠١، ص. ١٣)، ومنا هنا فإن أي تحدٍ لثقافة ما، ينطوي على تحد للغتها، واللغة العربية إحدى اللغات التي تواجه تحديات كبيرة من قبل قوى العولمة المختلفة، المتمثلة في المصالح المادية، الناجمة عن الاتصال الأجنبي، والتأثير الإعلامي القائم على الصخب والضجيج والتبشير باللغة الإنكليزية على أنها العالمية التي هي لغة البشرية.

وهذه دعوى باطلة لا تصمد أمام المحك العلمي الصحيح، حتى الناطقون باللغة الإنكليزية أنفسهم يثبتون ذلك، فهذا صمويل هنتغتون يثبت في كتابه "صدام الحضارات" أن القول بعالمية اللغة الإنكليزية ما هو إلا وهم كبير، وخلص إلى القول "إن لغة تعد أجنبية لدى ٩٢% من سكان الأرض لا يمكن أن تكون عالمية"(أحمد الضبيب،٢٠٠١، ص. ١٣).

إن التحدي الذي يواجه اللغة العربية اليوم مرده إلى الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الإنكليزية الناتج غالباً عن الانبهار بكل ما هو أجنبي، والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية للجميع، بل والتحدث بها بين العرب أنفسهم، ومن المعروف أن هذا ما يسمى في علم النفس بـ (عقدة النقص)، فيحاول البعض أن يضفي على شخصيته شيئاً من الرقي والتطور عن طريق النطق باللغة الأجنبية بين العرب، فبدلاً أن يقول لك حسناً، أو طيب ،أو جيد.

إن هذا الشعور يأتي من الإحساس بالهزيمة النفسية، والإعجاب المتنامي بصانع الحضارة المعاصرة الذي يمثل المنتصر والغالب، ومن البدهي أن يقلد المغلوب الغالب، في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده.

ومعلوم أن اللغة العربية هي أكثر اللغات وفرة في المعاني والألفاظ والاشتقاق، ويوجد فيها من الحروف ما لا يوجد في غيرها، ومع ذلك فقد دخلت علينا ألفاظ ومصطلحات ألفنا النطق بها برغم أنها في الأصل غير عربية، مثل كلمة (سيدا) للتعبير عن السير باتجاه الأمام، و *(glass)* لتعبير عن الكأس، وهكذا الكثير من المفردات المتداولة بين الشعوب العربية على الرغم من أن هذه الكلمات والألفاظ غير عربية، مع العلم أنه يوجد في لغتنا ما هو أسهل وأجمل، فبدل كلمة (تلفون) كلمة هاتف، وبدل كلمة (موبايل) نقال أو جوال أو المحمول أو الخلوي، وكلها ألفاظ عربية فصيحة لطيفة وخفيفة.

وإذا نظرنا إلى وضع اللغة العربية في سوق العمل نجد أن المبالغة في أهمية اللغة الإنكليزية واشتراط إجادتها كتابة وقراءة وتحدثاً من قبل الشركات الأجنبية وغيرها قد أصبح ظاهرة تستحق الوقوف عندها وتأملها بل وتأمل انعكاساتها على مصلحة الوطن وملامح الهوية، ومن المتوقع أن تزداد مزاحمة اللغة الأجنبية للعربية شراسة في سوق العمل مع استفحال ظاهرة العولمة، إذا ترك الحبل لهذه اللغات الأجنبية على الغارب.

يقول أحمد الضبيب: "ويكفي أن نعرف أن اشتراط إجادة اللغة الإنكليزية –سواء كانت ضرورية للعمل أو لم تكن –قد وقف حائلاً أمام المواطن العربي في منطقتنا العربية دون الحصول على لقمة العيش، وفتح الباب على مصراعيه لأعداد غفيرة من الأجانب حلوا محل المواطنين، وكلف المواطن العربي الكثير كي يتعلم هذه اللغة ويجيدها من أجل أن ينافس العامل الأجنبي، ومن المنتظر أن تسهم هذه الشركات العالمية العابرة للحدود في تعميق هذا الوضع وجعله أشبه ما يكون بالأمر الواقع، مما يتسبب في استجلاب المزيد من العمالة الأجنبية، وسد الباب أمام المواطن العربي إلا إذا وفى بهذا الشرط المجحف، الذي لا يشترط في أي بلد متقدم"(٢٠٠١، ص. ٢٠).

وذكر الدكتور الضبيب أن دراسات أجريت على طلاب فلبينيين يستخدمون اللغة الفلبينية في دراسة العلوم، تبين أنهم قادرون على فهم التعابير العلمية بشكل أفضل من الطلاب الذين يستخدمون اللغة الإنكليزية (٢٠٠١، ص. ٢٠).

ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن الاستعمال الرسمي هو الذي يكسب اللفظ العربي الثبات، ويجعله راسخاً في الاستعمال الرسمي، ولذلك كانت سورية من البلدان العربية المبكرة التي التفتت إلى

هذه الناحية، فعندما بدأت الحكومة العربية تمارس نشاطها ألفت لجنة لترجمة المصطلحات الحضارية الدخيلة من التركية والفرنسية.

وعندما أنشئ المجمع العلمي العربي في سورية سنة ١٩١٩م كان من بواكير أعماله دراسة الألفاظ الأجنبية الشائعة في دوائر الدولة، ووضع ألفاظ مقابلة لها، وألحت جامعة دمشق مع أخواتها من الجامعات السورية على التعليم باللغة العربية، وألزمت كل عضو هيئة تدريسية أن يؤلف أو يترجم كتاباً في كل مقرر يدرسه، وتجاوز عدد الكتب المطبوعة عدة آلاف، ويقوم طلاب السنة الأخيرة من كليات الطب بترجمة مئات الكتب والمراجع العلمية الطبية إلى اللغة العربية.

وهذه الخطوة الرائدة ينبغي أن لا تقف عند هذا الحد، بل يجب أن تتبعها خطوات إذ ما أردنا للغتنا النهوض وجعلها لغة الحياة العصرية المتطورة، وذلك بالاعتزاز بها وتفعيلها في مجالات الحياة كافة، أسوة ببقية الدول المتقدمة بلغتها، وحسناً ما فعلته بعض الجامعات التي سارت على النهج نفسه مثل جامعات العراق والسودان والجزائر.

إن الاعتزاز باللغة العربية لا يكون من خلال الخطب الرنانة والتعبيرات الشعرية والمديح المتكلف، وإنما يكون من خلال التطبيق العملي لإحلال هذه اللغة محلها اللائق في نفوس الصغار بحيث يُنَشّؤون على حبها والتعلق بها وجعلها سهلة ميسرة لهم والبعد بها عن التكلف وإشعارهم عملياً بقدرتها على استيعاب المنجزات الحضارية وتنمية المهارات اللغوية لدى هؤلاء الطلاب.

ولا أريد أن أخوض في الشبه التي يرددها أعداء العربية وأذنابهم من بني جلدتنا في أن العربية لا عهد لها بالمخترعات والمكتشفات الحديثة، وأن العربية لغة بداوة تفتقر إلى التجريد، ولا تستطيع حمل المصطلحات الحضارية، وهذه شبه واهية أوهى من بيت العنكبوت، تقوم على مقدمات تبين فسادها فالحضارة العربية والتاريخ يشهدان بعكس ذلك.

وقد نسي أو تناسى من يدعي جمود اللغة العربية عن مواكبة العصر، أن اللغة أي لغة لا تجمد بنفسها، ولا تتخلف بطبيعتها، كما أنها في المقابل لا تنمو وتزدهر منعزلة عن مجتمعها وما يجري فيه من أحداث.

يقول الدكتور كمال بشر: "إن جمود اللغة وتخلفها، ونموها وازدهارها، كل أولئك يرجع أولاً وأخراً إلى وضع أهليها، وإلى نصيبهم من التعامل والتفاعل مع الحياة، وما يجري، في العالم من أفكار وثقافات ومعارف جديدة ومتنامية، فإن كان لهم من ذلك كله حظ موفور انعكس أثره على اللغة، وإن قل هذا النصيب أو انعدم، بقيت اللغة على حالها دون حراك أو تقدم، اللغة لا تحيا ولا تموت بنفسها، وإنما يلحقها هذا الوجه أو ذاك بحسب الظروف والملابسات التي تحيط بها، فإن كانت الظروف فاعلة غنية بالنشاط العلمي والثقافي والفكري، كان للغة استجابتها الفورية ورد فعلها القوي تعبيراً عن هذه الظروف وأمارة ما يموج به المجتمع من ألوان النشاط الإنساني، وإن حرمت اللغة من هذا التفاعل ظلت على حالها وقدمت للجاهلين فرصة وصمها بالتخلف والجمود، في حين أن قومها هم الجامدون المتخلفون"(كمال بشر، ١٩٩٩، ص. ٥٤).

ويرد على هذه الشبهة أيضاً عبد الرحمن رأفت الباشا فيقول: "وأما قضية جمود اللغة وعدم تطورها مع الزمن كما يرجف المرجفون، فتلك قضية باطلة، ودعوة على ظاهرها ملامح الرحمة، وتكمن في باطنها صنوف العذاب، فلقد أمضّ الأعداء من هذه اللغة أن تكون اللغة الوحيدة بين لغات الأرض التي اتصل تليد تراثها بطريفه خلال خمسة عشر قرناً امتدت منذ النابغة في الجاهلية إلى شوقي في العصر الحديث، والتي يستطيع الملايين من أبنائنا في العصر الحاضر تلاوة القرآن الكريم والحديث الشريف، وأن يفقهوا معانيهما، وأن يدركوا هديهما، وأن يستشعروا عظمتها، وأن يتملوا مما حفلا به صلاح وإصلاح" (٢٠٠٥، ص. ١٣٣).

وتشير طبيعة اللغة العربية في ألفاظها وتراكيبها ودلالاتها وظلالها إلى حضور القيم الدينية والروحية المستمدة من الدين الإسلامي فيها، فللعربية أبعاد دينية وثقافية واجتماعية تجعلها محل تقديس عند أبنائها، فهي العروة الوثقى التي شكلت ذلك الانسجام والتجانس بين أبناء الأمة الواحدة في الماضي، وهي التي مازالت محافظة على خصوصياتها الحضارية بالرغم من ضعف أبنائها وعجزهم في العصر الراهن، "وتشير الدلائل إلى أنه إذا نهضت الأمة من جديد، وتكاثرت عناصرها، قويت اللغة العربية وانتشرت واتسعت لها الآفاق، ورضيت بها النفوس"(عيسى باطاهر، ٢٠٠١، ص. ٣٨).

ويطرح الأستاذ شحادة الخوري في بحثه "التعريب والمصطلح" سؤالاً وهو: هل لغتنا العربية قادرة على أن تكون لغة معاصرة؟ ويجيب: "من أمعن النظر في اللغة العربية وقارنها باللغات الأخرى، تملكه العجب من فصاحة مفرداتها وعذوبة ألفاظها، وجزالة تراكيبها، ورقة عباراتها، وقدرتها على التعبير والتوليد وقابليتها للنماء والتطور، وحسبها أن تكون لغة القرآن الكريم بجلال معانيه، وبلاغة بيانه، وهو الذي زادها غنى ووسع لها في الأرض امتداداً، وفي الزمان بقاءً، ثم استطاعت أن تكون وعاء المعرفة البشرية قروناً متطاولة، ولا يشك في أنها قادرة على أن تكون لغة المستقبل بعلومه وآدابه وفنونه، محتفظة بعالميتها التي اكتسبتها منذ خمسة عشر قرناً إلى آخر الزمان" (١٩٩٧، ص. ٧٩٩).

دور اللغة العربية في ترشيخ ركائز التربية الإسلامية

من المسلّم به أن التربية الإسلامية تستوجب الركائز التي تستمد من مصادرها المتينة ووسائلها الصالحة. واللغة العربية تلعب دورها البالغ من أجل ترشيخ الركائز التي تتدخل فيها، لأن بينهما علاقة وطيدة من مختلف وجهات نظر. يبدو أحد محاور العلاقة بين اللغة العربية والتربية الإسلامية من وجهة وظائف هذه اللغة الأساسية، ومن أهمّها ما قاله (نايف محمود معروف، ١٩٨٥، ص. ٣٢) إن اللغة أداة التعلم والتعليم، ولولاها لما أمكن للعملية التعليمية أو التربوية أن تتمّ، ولانقطعت الصلة بين المعلّم والمتعلم أي لتوقفت الحضارة الإنسانية، كما أن اللغة خزانة تحفظ للأمة عقائدها الدينية وتراثها الثقافي ونشاطاتها العملية، وفيها صور الآمال والأماني للأجيال الناشئة، بعبارة أخرى إن اللغة واسطة نقل الأفكار والمعارف من الآباء إلى الأبناء ومن الأسلاف إلى الأخلاف. وإن للغة العربية شأنا آخر يزيدها أهمية وخطورة فهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أي إنها اللغة التي اختارها رب العالمين لتكون لغة الوحي لآهل الأرض جميعا، ومن هنا كان على كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها أن يهتم بها اهتمامه بعقيدته الإسلامية وأن يعتزّ بها ويفضّلها على اللغات الأخرى.

وهذا القدر من أهمية اللغة مشترك بين بني الإنسان وبين اللغات كافة في كلّ مكان وزمان، إلا أنَّ اللغة العربية امتازت عن سائرِ لغات البشر بأنها اللغةُ التي اختارها الله – سبحانه وتعالى – لوحْيه؛ لما تمتازُ به من مميزات (محمد داود، ٢٠٠١، ص. ٥١). ويمكن أن نلخصَ أهميتها بالنِّقاط التالية:

أولا: أن البيان الكامل لا يحصل إلا بها : ولذا لم ينزل القرآن إلا باللغة العربية، قال تعالى : بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء [٢٦]: ١٩٥)، فدلّ ذلك على أنّ سائر اللغات دونها في البيان.

ثانيا: أن اللغة العربية تعد مفتاح الأصلين العظيمين؛ الكتاب والسنة، فهي الوسيلة إلى الوصولِ إلى أسرارهما، وفهم دقائقهما، وارتباط اللغة العربية بهذا الكتابِ المنزّل المحفوظ جعلها محفوظةً ما دام محفوظا، فارتباط اللغةِ العربية بالقرآن الكريم كان سببا في بقائها وانتشارها، حتى قيل: لولا القرآن ما كانت عربية؛ ولهذا السبب عني السَّلف بعلومِ اللغة العربية، وحثّوا على تعلمِها، والنَّهل من عبابها.

ثالثا: أنّ بالعلم باللغة العربية تحصل إقامة الحجة على الناس. وهذا داخل في عموم قول الله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ (النساء [٤]: ١٣٥)، فلا يمكن أن يكونَ الإنسان شاهدا لله إذا لم يكن فاهما لما يشهد به؛ لأنّ العلم شرط في الشهادة؛ لقول الله تعالى: وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (يوسف [١٢]: ٨١)، ولقوله تعالى: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف [٤٣]: ٨٦)، فلا يمكن أن يشهد الشّاهد بما لا يعلمه ولا يفهمه، ولا بد أن يكون الإنسان فاهمًا لما يشهد به؛ حتى تقبلَ شهادته على ذلك .

رابعا: أن اعتياد التكلم باللغة العربية يؤثِّر في العقلِ والخلق والدين: يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة : "اعلم أنّ اعتياد اللغة يؤثر في العقلِ والخلق والدين تأثيرا قويّا بينا، ويؤثر أيضا في مشابهةِ صدرِ هذه الأمّة من الصّحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقلَ والدين والخلقَ."

خامسا: أنّ اللغةَ العربية والمحافظة عليها من الدين، وهي خصيصة عظيمة لهذه الأمة. قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه" :- تعلّموا العربية؛ فإنّها من دينِكم، وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية: "فإنّ نفس اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرضٌ واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهمِ اللغة العربية، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، ثم منها ما هو واجبٌ على الأعيان، ومنها ما هو واجبٌ على الكفاية. (دون السنة، ص. ٢٠٧).

سادسا: أنّ اللغة العربية مصدر عزّ للأمة. لا بد من النظرِ إلى اللغة العربية على أنها لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولغة التشريع الإسلامي؛ بحيث يكون الاعتزاز بها اعتزازا بالإسلام، وتراثه الحضاري العظيم، فهي عنصر أساسي من مقومات الأمة الإسلامية والشخصية الإسلامية، والنظر إليها على أنها وعاء للمعرفةِ والثقافة بكلِّ جوانبها، ولا تكون مجرد مادة مستقلة بذاتها للدراسة؛ لأنَ الأمّة التي تهمل لغتها أمة تحتقر نفسها، وتفرض على نفسها التبعية الثقافية.

أصبح من الواضح أن اللغة العربية تمثّل قطاعا هاما في حياة الفكر العربي، فهي القاعدة الكبرى التي قام عليها هذا التراث العظيم ، واللسان الذي يربط الأمة. ولا شك في أنّ لهذه اللغة مكانة ضخمة بين اللغات، ذلك أنها لم تكن لغة عادية كاللغات في نشأتها وتطورها وامتدادها، بل كانت مخالفة للنواميس الطبيعية التي عرفت لمختلف اللغات. فأصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة من خلال عملية التربية والتعليم.

تثري التربية الإسلامية بوساطة اللغة العربية، لأن أكثر دعائمها وركائزها تستند إلى مصادرها الأساسية المكتوبة باللغة العربية، ومن أهمها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلا انفصال بينهما وبين اللغة العربية. يستوجب فهم ركائز التربية الإسلامية التي تستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الإلمام الواعي باللغة العربية. ومن المسلّم به أن التربية الإسلامية لا تتم إلا من خلال ترشيخ ركائزها الرصينة، وهي ترجع أساسيا إلى ما يهديه الله ورسوله في القرآن الكريم والسنة النبوية. ولا يتم تفهمها كاملا تاما إلا من خلال إتقان الإحاطة بلغتهما. ومغزى القول إن اللغة العربية تلعب دورها وأهميتها في ترشيخ الركائز للتربية الإسلامية بوصفها وسيلة جادة لاكتشاف ما يتعلق بها من مصادرها المكتوبة باللغة العربية نحو القرآن الكريم والسنة النبوية أو المصادر الأخرى.

الخاتمة

إننا في هذا العصر نعيش أجواء العولمة بما تحمله إلينا من معطيات تشمل الأدوات والمصطلحات والأفكار والتعبيرات والممارسات اللغوية، مطالبون بأن نقابل ذلك الزحف بتنقيح علمي يفيد من إيجابيات العولمة، ويؤمن بالتلاقح الحضاري والتفاعل الخير، ويدرأ الخطر عن ثقافة أمّتنا، ولغتنا بخطط علمية، واستراتيجيات طويلة المدى، ووسائل تفيد من ثمرات العلم الحديث في هذا العصر وتختلف عن وسائلنا التقليدية القديمة، مستندين في ذلك إلى الثقة بأنفسنا، وبمقوماتنا الذاتية النابعة من مبادئ ديننا الإسلامي الحنيف وإسهامات حضارتنا العريقة، وقدرات لغتنا العربية التي سبق لها أن دخلت المعترك الحضاري قديماً فانتصرت فيه، وكانت الوجه المشرق للهوية العربية على مر العصور.

وقد ظهر في البحث من ملامح مهمة من أبرزها: ١) غرس حب اللغة العربية في نفوس الناشئة، باعتبار أنها لغة القرآن الكريم، الذي بفضله حفظ لنا لغتنا من الضياع، والبحث عن الوسائل التي ترغب الطلاب في تعلم اللغة العربية، وذلك من خلال تطوير المناهج، وتيسير القواعد؛ ٢) بث

الوعي اللغوي بين أبناء الأمة وإيقاظ غيرتهم من اللغة، وترميم ما تصدع من ثقتهم بها واعتزازهم بتراثها الحضاري والتاريخي بوصفها مقوماً مهماً من مقومات الشخصية العربية؛ ٣) إعادة النظر في طريقة تعليم اللغة العربية في المدارس، والاستفادة من الوسائل الحديثة مثل الحاسوب والبرمجيات التعليمية؛ ٤) الاستفادة من تجربة الجامعات وأخص بذلك السورية في تعريب التعليم في جميع مراحله، وقد أثبتت هذه التجربة نجاحها، وسارت بعض الجامعات في الوطن العربي على غرارها، وكذلك تجربة بعض الجامعات في الدول الإسلامية مثل: إندونيسيا، بإلزام الطلاب بتعلم اللغة العربية في أول سنة جامعية؛ ٥) إنشاء مؤسسات متخصصة ترعى تكوين الأجيال، وتعمل على ترجمة الكتب والبحوث العلمية المختلفة مع التنسيق بين هذه المؤسسات وبين مراكز البحث العلمي والجامعات؛ و٦) الاستفادة من أجواء العولمة المنفتحة والمتطورة التي يمكن أن تعين على إيجاد وسائل وآليات تستخدم في صالح اللغة العربية، سواء من حيث نشرها، أو سهولة التواصل بين الباحثين في قضاياها وبالتالي فإن لغتنا العربية كفيلة بما وهبها الله تعالى أن تُواكب المستجدات والتحديات في هذا العصر "عصر العولمة".

المراجع

ابن عيسى بالطاهر، ٢٠٠١. الدور الحضاري للعربية في عصر العولمة. الطبعة الأولى، الشارقة.

الرازي، ابن فارس، ١٩٩٣. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، مكتبة عيسى الحلبي، القاهرة.

ابن منظور، ١٤١٠. لسان العرب، الطبعة الأولى. بيروت: دار صادر.

الباشا، عبد الرحمن رأفت، ٢٠٠٥. العدوان على العربية عدوان على الإسلام، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع.

الباقوري أحمد حسن، ١٩٦٩. أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، مصر: دار المعارف

البخاري، ١٤٢٦هـ. صحيح البخاري، الرياض: دار طيبة للنشر.

بشر، د. كمال، ١٩٩٩. اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم. القاهرة: دار غريب.

الثعالبي، ١٩٣٨. فقه اللغة وسر العربية. القاهرة.

الجاحظ، ١٩٧٥. البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، القاهرة: الخانجي.

الجندي، أنور، دون السنة، اللغة العربية بين حُماتها وخصومها،. بيروت: مطبعة الرسالة.

الحاكم، دون السنة. المستدرك. بيروت: دار المعرفة.
حبل، محمد حسن ١٩٧٨. خصائص اللغة العربية، تفصيل وتحقيق، القاهرة: دار الفكر العربي.
الرافعي، ١٩٧٣. تاريخ آداب العرب، الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب العربي.
رمضان عبد التواب، ١٩٦٣. فصول في فقه اللغة، القاهرة: مكتبة الخانجي.
الزركشي، ١٩٦٠. البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين. مصر: طبعة دار إحياء الكتب العربية.
السيوطي، دون السنة. المزهر في علوم اللغة العربية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار الفكر.
السيوطي، دون السنة. الإتقان في علوم القرآن، تعليق د. مصطفى البغا. بيروت.
الشربجي د. يوسف، ١٤٢٢هـ. أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، الطبعة الثانية. دار الأندلس
الشنطي، محمد صالح، ١٤٢٤هـ. المهارات اللغوية، حائل: دار الأندلس.
الضبيب، أحمد. ١٩٩٧. المجلد ٧٣، الجزء ٤، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق.
الضبيب، أحمد، ١٤٢٢هـ. اللغة العربية في عصر العولمة، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة العبيكان.
عبد الجليل، عبد الرحيم، ١٩٨١. لغة القرآن الكريم. عمان: طبعة مكتبة الرسالة الحديثة
عتر، نور الدين، ١٤١٨هـ. القرآن الكريم والدراسات الأدبية، الطبعة الثالثة. دمشق: دار الفكر.
عثمان الفريح و أحمد رضوان. ١٤١٥هـ. التحرير العربي، الطبعة الخامسة. الرياض: مكتبة العبيكان.
العليان أحمد فؤاد، ١٤٢١هـ. المهارات اللغوية،الرياض: دار المسلم.
الفراهي، ١٩٩١. دلائل النظام. الطبعة الثانية. الدائرة الحميدية الهندية.
كارل بروكلمان، دون السنة، تاريخ الأدب العربي، طبعة دار المعارف.
معروف، نايف محمود، ١٩٨٥. خصائص اللغة العربية. بيروت: دار النفائس.
العسكري، أبو هلال، دون السنة. الصناعتين. مصر: مطبعة الحلبي